لامارتين وشـوقي..
والوجـدان الإنساني الكبير

د. علي ملاحي *

«كونوا أحراراً كالعصافير أيّها الشعراء»[1]. هذا هو المدار الثقافي الإبداعي الذي يحقق الخلود والمجد والسّمو، لأنه يصنع من الكلمة اللغة التي لا تنتهي معانيها.. طالما أنّها وسيلة الشعراء وعملتهم التي تعطيهم الذات والكينونة والوجود والاعتبار، ومن خلالهم تستعيد البشرية جمعاء ذاتها الحرة، وانسيابية روحها المتدفقة.

* أستاذ في جامعة الجزائر (الجزائر)

- العمل الفني: الفنان أحمد الياس

هي الحريـة.. بكل المعـاني.. في اللغة.. في الرؤيـا وفي الوجدان وفي الموقف.. تصنع الشاعر وتسبغ عليه خاصية الإنسان.. الأمر الذي يؤهل الشعر لأن يرفع الشاعر ويحقق كيانه ويمنحه مشروعية التألق، في الفضاء الإنســاني الواسع، أو ما يمكن أن نطلق عليه العالمية..

كان صدى هوميروســ الشاعر، ولا يزال يــدق في كل مــكان من العــالم، ودون وساطة أو تزكيــة يمارس حضــوره الإبداعي، ومثله شكسبــير ودانتي وها نحن نتلذذ بقراءة شعر زهير وعنترة وعمر بن كلثوم والنابغة وغيرهم من شعراء الجاهلية والعهد الأموي والعباسي وعصر النهضــة والعصر الحديث. وكثيراً ما نستشهد بشعر عمر بن أبي ربيعة وأبي نواس والمعــري وبشار وحسان بــن ثابت والبحتري والمتنبّ وغيرهم من أقطاب الشعرية العربية التراثيــة التــي كان لها الفضــل في ظهور، بــل وامتداد حرف الضاد مــن خلال شعراء متميزيــن من أمثال حافــظ إبراهيم وأحمد شوقي وابراهيم ناجي وعلي محمود طه ومن بعدهــم الجواهري وسليمان العيسى ومفدي زكريــا وبدر شاكر السيّــاب ومحمود درويش ونزار قباني وعبد الوهاب البياتي.. وغيرهم ممن يمثلون السجل الذهبي للشعرية العربية الحديثة والمعاصرة(٢).

هذا الجمع الهائل من الشعراء العرب لا يغنينا –دون شك– عن العودة إلى سجل الشعر الإنساني الواســع.. ومثلما تنفســ أسلافنا شعــر شكسبير، بعنفــوان وإخلاصــ تنفتح الأجيــال كلها على غيره من شعــراء اللغات الأخرى بثقة ويقين، ولا يمكن للشعر العربي وللقارئ العربــي إلا أن يتعايش حضارياً مع جوته وشاتوبريــان وبوشكين وفولتير وموليير ولافونتــين ولامارتــين وبودلــير وتولستوي وطاغــور وأراغــون.. وغيرهم مــن الشعراء الذين يمثلون نفحــة إنسانية عالمية. تتجاوز الاعتبارات الجغرافية والزمنية(٣).

كانت أرواح هؤلاء الشعراء تتلاقح وتتآزر في نسيج واحد اسمه الشعر. وكانت نفحاتهم العذبة تنبعــث من رماد الذاكــرة الإنسانية لتخلق حياة بالغة الروعة والفاعلية، إلى حد أنهــا تذهلنا وهي تشدنــا إلى الماضي وكأننا نعيشــه، نندمــج في فسيفسائيتــه الثقافية وتاريخــه العريــق بــكل ما يحملــه من روح العصر.

يتبــارى الشعراء والمبدعون علــى اختــلاف مشاربهــم ومواقفهم وجغرافيتهم وأزمنتهم مع الكون ويحاولون بكل ما في اللغة مــن طاقة خلاقة صناعة التاريــخ وببلوغرافيته، يعيدون توزيع اللغــة.. ملء ما فيها من دلالات غير محدودة.



وهكذا.. شهــدت المعمورة ما شهدت من المعاني الشعرية، وعرفت ما عرفت من الشعراء، ولم يتمكن أي من هؤلاء اختزال الكــون، ولا حصــر اللغــة في مقطوعة أو قصيدة أو ديوان.. بل ظلــت لغة الشعــراء سخية محملــة بروح عامــرة بالصدق والتدفــق والتغــيّر والاختلاف والتنــوع.. ولم يحــدث أن ألغت لغــة شاعر لغة الآخر. وقــد قدِّر للقرائــح الشعرية أن تتلاقى مثل أرواح مجنّدة وتتضافر على أوسع نطــاق في شــكل صيغ وملامــح وأفكار عبر فضــاء اللغة المترامي الأطــراف والسبل، في شكل قبسات تتداخل فيمــا بينها، تتحاور.. وتتجاور.. وتتجادل وتتوالد لتعيد بناء الحياة بكل مكنوناتها.. نصٌّ يولِّد نصّاً. وفكرةً تولد فكرة. وصورة تولد صورة، ومن رحم الشعراء يولد الشعراء. وسبحان الخالق فإنّ كل قبس مــن هذه القبســات التي تبــزغ تباعاً تنفرد باشعاعاتهــا الخاصة المفارقة رغم أنها تولد من رحم واحد.

تتجـــددّ دورة الحياة، حياة الشعراء جيلاً بعـــد جيل دون أن يمحـــو أحدهم أثر الآخر، ومـــن حكمة الله أن يولد مـــن رحم الشعراء أنفسهم شعراء على درجة من الموهبة الفائقة التي تمثل طفرة قوية في مسار الشعر.. تشبه نفثـــة مشعة نادرة تثـــير الفضول لما تتميز به من حدة في الشعور وبعـــد في البصيرة، مما يجعل منها حالة خاصـــة تستدعي الاهتمام الزائـــد. لذلك لا أحد ينكـــر حين نقول كان أحمـــد شوقي أميراً للشعـــراء، ولا ينكر أحد حين نقول كان المتنبي شاعرا لحكمة بل يمكن القـــول إن الدارسين يبحثـــون في سرّ عبقرية هذيـــن الشاعرين.. في محاولة لمعرفة حقيقة الشعـــر نفسه. ولمـــاذا تلتقـــي روح البحتري الشعريـــة مع روح شوقي؟ ولمـــاذا تلتقي روح الشعـــر في الأزجـــال والموشحات مـــع الروح الشعرية التي يتميز بهـــا شعراء التروبادور؟ ولمـــاذا تتجـــاوب شاعرية الشاعـــر الفرنسي لامارتين مع شاعرية أحمد شوقي أو الشابي أو علي محمود طه؟

أسئلة يفرضها الواقع الثقافي الحضاري لمـــا تنطوي الإجابة عليها مـــن أبعاد فلسفية متعددة.

إن الحقائق الحضارية التي تمثل خلاصة التجارب الإنسانية الواسعة تؤكد بقوة أن كل تجربة شعرية مهما كان طابعها الوجداني أو الإيديولوجي أو الفلسفي تبقى استلهاماً واسع الامتصاص لتجارب شعريـــة سابقة.. وهذا يعنـــي أن كل شاعر عرضـــة –بشكل عفوي– للدخـــول في عمليـــة تجاذب مع مـــا قرأ من نصوص شعرية وإبداعية بشكل عام. ولذلك فإنّ القـــول بوجود صلة بين لامارتين وأحمد شوقي قابل للإثبات وهو طرح سليم وممكن، بـــل.. يمكن القول إنه شأن من حق الدارسين في الأدب المقـــارن البحث فيـــه بقوة(٤). ومن حق النقاد أيضاً العمل على اكتشاف مواطن اللغة الحوارية التي تجمع بين التجربتين(٥). والبحـــث ليس لغـــزاً، بل هو تأكيـــد لعبقرية الشاعرين. فـــإذا كان شوقي مثلاً قد امتص في شعـــره أو تلاقى –بفعل المشاعر أو بفضل القـــراءة– مع ما جاء في شعـــر لامارتين فإن في ذلك دلالة قوية على حدة موهبة شوقي.. والأمـــر نفسه يؤكد عبقريـــة لامارتين الذي يكون قد تفاعل مـــع ثقافة الشرق من خلال قراءاته أو استماعه للأزجال والموشحات ولو من خلال شعـــر التروبـــادور الفرنسي الذي

أثبتت الدراسات المختلفة تأثره الواضح بالأزجال والموشحات وتأثيره هو بدوره في الشعر الأوروبي بشكل عام والفرنسي بشكل خاص[٦] خاصة أن لامارتين يوحي بتلميح إلى صلته بالأدب العربي الأندلسي[٧] حتى أنه زعم أن أصوله العائلية تعود إلى الدولة الأندلسية وقد بدا من خلال نبراته الأسلوبية التي يتميز بها يشعره أنه مسكون بالإيقاع العربي.. وهو أمر ثقافي يدل على ذكاءٍ وموهبةٍ شعريتين في شخصية لامارتين.

يذكر الدارسون والقرّاء والمهتمّون بكل معاني الكلمة- وخارج كل حدود المماحكة السياسية أو الأيديولوجية، بل وبعيداً عن كل شوفينية عرقية أن لامارتين- واسمه الكامل: ألفونس ماري لويس دي برادي لامارتين- قد ملأ فضاء الحياة الثقافية في فرنسا بشعره وتلألأ اسمه وتدفقت إيقاعاته بفضل ذكائه الملتهب وقريحته الوقادة وفطرته الشعرية المطبوعة العامرة بالحب الإنساني الكبير. وقد كان له الفضل كل الفضل في بعث الشعر الفرنسي من نومه العميق في القرن الثامن عشر نتيجة النفوذ الساحق للفلسفة والعلوم الطبيعية والفيزيائية على الفكر الأوروبي حينها، بل كان له الفضل في إعطاء صناعة الأدب عموماً عمراً جديداً متجدداً بفعل موهبته الفذة وعبقريته التي سمت بالثقافة الفرنسية إلى الفضاء الإنساني الرحب في القرن التاسع عشر ومن ثم حق للشاعر لامارتين أن يدخل عالم الشعر من أوسع الأبواب، فحق له أن يُمدح بأروع الألقاب. لأنه نبيل وهو في أصله من عائلة النبلاء، ولأنه سخيّ.. آمن بطهارة الحياة وبأفلاطونية الحب، وقد ضحّى بكل قوة في سبيل حبه الإنساني بكل معاني الكلمة فكانت حياته رغم سعتها بائسة وحارقة وكيف لا وهو الذي أحبه العالم الواسع وفشل هو في حبه الكبير لجوليا[٨]. بل.. وفشل في تجارب حبه كلها.. حتى كأن القدر كان يدفعه إلى تلك الأسئلة الكونية التي حملها شعره بجلاء.. وقد كانت قصيدته البُحيرة نموذج المعاناة الفذة التي تشهد في كل كلماتها وإيقاعاتها على عمق مأساة الشاعر جراء فشله في حبه، حتى أن الصخور والرمال والأشجار والكهوف والأمواج.. كانت كلها تتناثر مثل قلبه المجروح:

«هكذا كنتِ تهدرين تحت هذه الصخور الغائره

وعلى جوانب هذه الصخور كنت تتكسرين،
وتتناثرين رذاذاً
وهكذا كانت الريح ترمي بزبد موجاتك
على أقدامها الحبيبة»[٩]

بهذه اللغة الهادئة المائلة إلى لغة الاختبار الذاتـــي يرسم وجدانه الشعري ويعلن انتماءه إلى النـــبرة الرومانسية التي أذكاها هو نفسه قبل أي شاعر فرنسي آخر، وربما كان لثقافته اليسوعية التي تلقاها في أوّل حياته أثرها في هذا الهدوء الذي يتملك لغته الشعرية. وربما كان لذلك أثره أيضاً في ميله إلى التأملية بدل اللغـــة الصارخة، ومنه جـــاء اختياره لعنوان مجموعتـــه الشعريـــة الأولى اســـم: «تأملات شعرية» والتي فتحت له بشكل عجيب آفاقاً رحبـــة لدى القـــرّاء والدارســـين وكان عمره آنذاك واحـــد وثلاثين عاماً.. أعطاه الديوان شهرة واسعة، دفعته إلى إصدار ديوان ثان في السياق التأملـــي نفسه تحت عنوان «تأملات شعرية جديدة» قادتـــه فيما بعد إلى قصيدة البحيرة الشهـــيرة.. والتي اعتبرها الدارسون أشهـــر القصائـــد الرومانسيـــة في الشعـــر الفرنسي[١٠]. وهـــي بالفعل كذلك وقد وجد الدارسون قصائد عربيـــة تشبهها وتدور في نفس الفلك لكـــن المعنى العميق الذي تحمله هذه القصائد لا يرقى إلى المعنى الذي ترشح به قصيدة البحيرة التـــي كتبها لامارتين، إذ جعلنا نحس في شعره عمق العاطفة وسمّوها وصدقها، وهو شيء نابع من خصوصية الشعر الرومانسي الذي يتميز فيه الشاعر بالميل إلى وصف عذاب النفس وآلام القلب وقلق الروح مع المزج بكل هـــذه الأشياء بالطبيعة في نوع من العناق والجاذبية واللذة[١١].

الواضـــح أن لامارتين قد بلـــغ القمّة في تصوير عواطفه بما تحمله من معاناة نفسية حادة، عبر شريط الذكريات الجميلة مع حبه الأفلاطوني الذي لا ينتهي إلا ليبدأ..

يصنـــع في كل مـــرة عـــبر خيـــوط اللغة الرومانسيـــة عذاباته ويصف في حدة ولوعة واقـــع الحـــب الكبير وهـــو يتكســـر على يد الزمـــن.. يكـــثر في كل متنفـــس إبداعي من الشكـــوى واللوعة والحداد ويذكر بألم وحسرة وحيرة ألم لحظات اللقاء والعناق.. كان يتداوى من خـــلال ذلك مـــن حزنه الـــذي لا ينتهي حزن الشاعر المفتـــون بالجمال الأفلاطوني المسكـــون بالرقة والدّعـــة. وبعطف الأمومة وحـــب العاشقين.. لذلك اقترن شعره بالسمو

الروحي، والمواقف الملائكية التي تتحقق بفعل التقاء الأرواح الطاهرة، وهو ما جعل حبّه ينحو نحو مثالية تتجلى من خلال إحساسه الصادق وعاطفته الجياشة التي ترابط باستمرار عند حبه الكبير لمسقط رأسه في قرية (مي) وكلفه الشديد بأمه وأخواته وغرامه بالطبيعة من سهول ووديان إلى جانب غرامياته.. وقد كان -خلافاً لشعرائنا الذين كتبوا عن البحيرات- يصور عواطفه أكثر من تصويره للبحيرة(١٢) بمعنى أنه كان يؤمن بذاته وبوجدانه وبمشاعره ويسخّر لذلك كل السبل ليصوغ صوره الوجدانية بهذا الشكل الهادئ الرومانتيكي:

أيتها البحيرة، ويَا بُكْمَ الصخور، ويا كهوف
ويا ظليل الغاب!
أناديك أنت التي أغضى عنك الزمان
فأبقاك، بل هو خالع عليك
شباب بعد شباب
احفظي من هذه الليلة، أيتها الطبيعة الجميلة
احفظي على الأقلّ ذكراها»(١٣)

كان لامارتين بهذا الشكل جوهرة متلألئة على جيد فرنسا، وقد منحها بلغة لا تمحى نشوة وانتصاراً لا يمكن قياسهما بثمن، وبفضل مشاعره الرومانسية العارمة في دغدغتها الإنسانية، تقمص أحلام كل الفرنسيين باسلوب متدفق وعبارات قوية رصينة نابضة بالمعنى الحضاري، وتوقف بروح سامية أمام الواقع العصيب الذي كان يواجهه متأملاً متروياً وهو ما تؤكده كل الوثائق التي تشرح سيرة حياته الثمينة في عرف كل الفرنسيين الذين خلّدوه على طريقتهم الخاصة.

خلاصة الموقف أن لامارتين كان شديد الحب مفرطاً في العاطفة. ويعتبر نموذجاً في هذا الشأن. لذلك كان صاحب رسالة وصاحب أدب خالد إنساني بالمفهوم الحضاري. وقد جاءت صوره الشعرية ترجمة لذلك الشعور الوجداني الجياش المتماوج. وقد جاء سمو أدبه- باعتراف الدارسين- انعكاساً أميناً لنفسيته إلى أبعد الحدود، بل وترجمة لأخلاقه ويشهد على ذلك تمسكه الإنساني العميق بالوئام والسلام حتى في أشدّ الحالات تجريحاً، ومثال ذلك ردّه الجميل على الشاعر الألماني بيكير الذي هاجم فرنسا في لغة عنيفة ضمن قصيدة يعلن فيها تشبثه بنهر الرين الوديع الذي أبى لامارتين إلا أن يسميّه

نهر الغرب[١٤] وهو أمرٌ يشير إلى الفلسفة العالية السامية التي كان يؤمن بها لامارتين، وهي الفلسفة التي تدعو إلى توحيد صفوف الإنسانية وكسر كل أسباب الشقاق. وتلك هي نفسية لامارتين الحقيقية النبيلة، وهو الذي كان يصرّح دائماً بأن الإنسان إلهٌ صغير هوى من السماء إلى الأرض، فيجب أن يكون ملائماً لعنصره السامي. هذه القناعة بمثابة رمز شعري لسمو عنصر الإنسان. وهي صورة نادرة لشخصية لامارتين المثالية في أخلاقها.. إنّه الرجل السمح الذي يتحاشى الصدام.. الميال إلى الهدوء والسكينة، المشدود إلى الجمال الفتان.

أدب لامارتين تجمعه رابطة واحدة، هي رابطة الخلود. وقد فاق غيره بامتياز في الجانب العاطفي وما حمله من إلهامات يحتفي بها الوجود الإنساني. فقد كان مأثوراً عنه حبه اللامحدود لأسرته لذلك كانت عاطفته مفتوحة على لغة الحب والحوار والسمو وكان ذلك يشعره بسمو الإنسان فوق مظاهر الحياة وقساوتها.. وكان حبّه لأسرته مفتاحاً لحب الطبيعة إلى أقصى حدّ.[١٥] وهو الحب الذي كرّس له كل المشاعر السامية الدافئة. ونخلص من خلال ذلك إلى أن لامارتين تتجاذبه ثلاثة أصناف من الحب: حب الأسرة الرائع، وحب الحبيبة الأفلاطوني، وحبّ الطبيعة بكل ما فيها من مفارقات ومشاعر متناقضة.. وقد ظل وفياً لهذه العواطف، يتغنى بها ويدافع عنها في سلسلة أعماله..

وتشير المراجع التي تناولت سيرته إلى أن لامارتين قد انخرط في الحياة الأدبية مبكراً، مؤمناً في ذلك بالمثل العليا بما تحمله من أمل في سعادة البشرية، وهذه المشاعر هي التي كانت تلوّن شعره الرومانسي الذي كان يصبغ بإشعاعاته الدافئة شيخوخة الواقع الشعري الكلاسيكي[١٦].

من منتجاته الإبداعية التي احتَكّ بها مع القارئ نذكر تأملاته الشعرية ثم التأملات الشعرية الجديدة. وقد احتوت مجموعته الأولى التي نشرت سنة ١٨٢٠ على أشهر القصائد وأمتعها منها قصيدة العزلة، والمساء والوادي الصغير، والبحيرة، والخريف..

كما احتوت مجموعته الثانية التي ظهرت سنة ١٨٢٣ على قصائد مثل: الماضي، الشاعر المحتضر، بونابارت، الصليب.

ومن أعماله أيضاً قصيدته (موت سقراط) التي تفاعل فيها مع محاورات الفلاسفة خاصة أفلاطون.

إلى جانب ذلك مجموعته الخالدة أناشيد سياسية ودينية[١٧] ومن بين قصائدها نذكر قصيدة مي أو مسقط الرأس وقصيدة : إلى البلبل..

ومن بين قصائده الأخرى نذكر قصيدة مرسيلية السلام..

وناهيك عن ذلك، فقد ألف لامارتين في الحماسة والقصص والتاريخ والخطب السياسية والاجتماعية ويوصف بأنه كان خطيباً ماهراً، وقد اكتشف ذلك عندما تقلد كرسياً في البرلمان الفرنسي.

ولا بد في هذا المقام من الوقوف عند منشورات أخرى له مثل كتابه رحلة إلى الشرق الذي صدر عام ١٨٣٥ وجوسلان، وسقوط ملاك أو مَلَكٌ يهوى(١٨٣٨).

ويؤثر عن لامارتين الذي كان من ضباط الحراسة للويس الثامن عشر وكان قبل ذلك من النبلاء الارستوقراطيين ما لبث أن انقلب ضد هذا القصر ودخل ضمن العائلة المؤيدة للثورة الفرنسية التي أطاحت بالنبلاء وكان بذلك أحد قادة الثورة الشعبية عام ١٨٤٨. وقد ترقى بفضل ذلك حتى أصبح وزيراً للخارجية في الحكومة الفرنسية المؤقتة. وفوق ذلك فقد كان من أكبر الدعاة إلى إلغاء قانون الرق الذي يسلّط على السود(١٧) غير أن الانقلاب العسكري الذي قاده نابليون الثالث أوقع لامارتين في ضائقة نفسية ومادية حادة خاصة أنه لم يدخر شيئاً يحفظ ماء وجهه مما اضطره إلى العمل ليلاً ونهاراً، حتى أنه كتب إلى فيكتور هيجو قوله: بأنه يخشى أن يصادروا بيته ومكتبه والأثاث لأنه لا يستطيع أن يدفع الفواتير. وقد اضطر في أواخر حياته إلى قبول هبة من الدولة عام ١٨٦٧. ولم يطل عمره وتوفي بعد سنتين تقريباً[١٨].

خلاصة الموقف إن لامارتين كان شاعراً ملهماً، بل كان هو الإلهام نفسه.. ليس هذا مبالغة، لأن ذلك يتجلّى من خلال كلماته وعباراته وإيحاءاته وأفكاره وأساليبه النفّاثة وإحساسه الرومانسي الكبير. وهو ما جعل الدارسين يسبغون عليه من الشاعرية ما لا حصر لها. وكان الحق كل الحق للشعر الفرنسي أن يضعه في الصف الأول ضمن

قائمـــة الذين صنعوا مجـــد فرنسا بإخلاص كبـــير. مثله في ذلك مثل رعيلـــه من الشعراء والأدباء الفرنسيين أمثال شاتوبريان وفيكتور هيجـــو ودي موسيـــه والفريـــد دي فينـــي. وغيرهم مـــن الشعراء خاصـــة الذين حملوا جذوة الحسّ الشعـــري الرومانسي الفرنسي بطلاقة وريادة(١٩).

لقد كان الشعر بالنسبة له حقيقة والكلمة حديقة. وكانت روحه المتوثبة معشوشبة بتلك الـــروح الولهانة الحالمة الظمـــأى إلى شطآن الحبّ الكبير، الإنساني السامق، الفياض..

هـــذه الـــروح الشعرية، وهـــذه الأخلاق السمحـــة وهذه الإيقاعـــات الانسيابية كانت كفيلة بأن يقرأ الناس شعره ويحفظون عهده. وقد كان أحمد شوقي أمير الشعراء واحداً من الذين تشربـــوا شعره بشكل أو بآخر.. خاصة وأن أحمـــد شوقـــي دخل باريس مـــن أوسع بابها طالباً للعلم والمعرفة وكان وقتها مفتوناً بالكلمة الشعرية إلى ابعد الحدود(٢٠).

قُدّر لأحمـــد شوقي وهو أمـــير الشعراء وحامل لواء الكلاسيكية ومجددها في الوقت نفســـه أن يولد قبل سنة مـــن وفاة لامارتين فقـــد ولد لامارتـــين عـــام ١٧٩٠ وتوفي عام ١٨٦٩ بمدينة باريـــس، وأما شوقي فقد ولد سنة ١٨٦٨ بالقاهرة وتوفي عام ١٩٣٢. وكان والده مـــن خاصة الخديـــوي سعيد، وجدته لأمه إحدى وصائف الخديوي اسماعيل، وهو الأمر الذي سمح له بـــأن ينتقل في إفادة إلى باريس لدراسة الأدب والقانون، ومكّنه ذلك- بدعـــم من الخديوي- من متابعة الدراسة في فرنســـا مدة أربع سنوات ونصف، عاد بعدها إلى مصر في مَعية الخديوي توفيق ثم عباس فـــكان شاعـــره وصفيه. ولمـــا قامت الحرب العالمية وجد نفسه منفياً إلى الأندلس ولم يعد إلى مصر إلا بعد انتهائها بشكل كامل(٢١) حمل في جوانحه الخطاب النهضوي وشغلته الآثار الفرعونيـــة المصرية كما شغلته الآثار العربية التـــي تملآها وناجاهـــا في الأندلس على أن مـــا يهمنا هنا هو هذه المنافـــذ التي تطل أو تلتقي مع رومانسية لامارتين الشعرية. نقاط الالتقاء والاختلاف على حد سواء.

كان أحمـــد شوقي مهووساً بالتاريخ وكان الكون بالنسبـــة له وكذا الطبيعـــة والمجتمع عناصـــر أساسية ضمن شيء يسمى التاريخ. ويقـــول العارفون به أنه أثر عنه أنه قوله: إن الشعر ابن أبوين هما الطبيعة والتاريخ. وقد

أثر عنه شاعر التاريخ الأول.. التاريخ بمفهومه الحضاري الواسـع. وهو الجانب المضيء في حياته لأنه باختصـار هو الذي منحه شعبية وحضوراً متميزين وأساسيين[٢٢].

معنى ذلك أن هـذا الشاعر الذي يسكنه التاريخ لا تفوته فائتة إلا ويأخذ بها ويدونها في قلبه ومشاعره ومن ثم في قصائده. وقوله وهو الشاهـد على نفسـه: «طلبت العلم في أوروبا فوجدت فيها نور السبيل من أول يوم، وعلمت آني مسؤول عن تلك الهبة التي يؤتيها إليه، ولا يؤتيها سـواه، وأني لا أؤدي شكرها حتـى أشاطر الناس خيراتها التي لا تحد ولا تنفذ»[٢٣].

أحمد شوقي بهذا المفهوم يقرّ بالاحتكاك العميـق بـالأدب الفرنسي فكيـف بالشعر الفرنسي.. نفسـه..؟ وهو سيد اللغة الرّحبة والناطـق الأمـين بالوطنية الحقـة.. حين يقول:

وطني لو شغلت بالخلد عنه
نازعتني إليه في الخلد نفسي
شهد الله لم يغبْ عن جفوني
شخصه ساعةً ولم يخل حسيّ

هذا الإحساس الذي يطمئننا به الشاعر يجعلنا نلتمس أسباب إحساسه بالغربة بشكل متواصـل. فإذا كانت الظـروف قد فرضت عليـه نشـأة «في قصر الحاكـم فإنه مع نمو حسّـه الفني وما صحب هذا الحس من توتر بدا إحساسه بالغربة من هذا الجو الكهنوتي يتزايـد، وهذا يفسّـر لنا كيف أنّـه بعد أن قضى مدة وجيزة من عمره يقول شعر الولاء التقليـدي استجاب لتمـرده الداخلي ليقينه مـن أن فنّه ليس ملكاً لمطالب الحياة اليومية العاجلة بل ملكاً للجماعة والتاريخ[٢٤].. يبدو من هـذه السياقات التقـاء أحمد شوقي مع لامارتين في مسألتين حتى الآن:

١- كل واحد منهما عاش في كنف القصر ضمن طبقة النبلاء.

٢- كل واحد منهما أعلن تمرده.. بطريقته الخاصة على الحاكمية.

هاتان المسألتان تشـيران إلى تنامي هذا الإحساسـ بالغربة في أعمـاق شوقي نتيجة التحامه وقراءاته المستفيضة لحياة مارتين.. واستفادتـه منها على أحسـن وجه. وقد بدا ذلـك واضحاً خاصة بعـد عودته من منفاه. وقـد يقظته ربانيـة أو تصب في هذا المحور وهو يقول:

ربُّ هذي عقولنا في صباها
نالها الخوف واستباها الرجاء
فعشقناك قبل أن تأتي الرّسْلُ وقامت
بحبك الأعضاء.

وهو موقـف شعري يشـير إلى المراجعة الذاتية التي بادر بهـا الشاعر أحمد شوقي في مجـرى حياته وقد بدا ذلـك واضحاً في الصـراع الحاصل بـين الماضي والحاضر في نسق حياته..

يلتقـي شوقي في هذا الشأن مع لامارتين في تمسكـه الواضـح بالمواقـع القريبة منه، كارتباطه بالجيزة في قوله:

وأرى الجيزة الحزينة ثكلى
لم تفق بعد من مناحة رمس
أكثرت ضجة السواقي عليه
وسؤال اليراع عنه بهمس
وقيام النخيل ضفران شعرا
وتجرّدن غير طوق وسلس

هذا الاهتمـام بالمكانة (الجيـزة) وهذا التشبث بالطبيعة سلـوك شعري لمسناه عند لامارتين من حيث تخصيصُه قصيدة لمسقط رأسـه (مـي) وانجذابه البالـغ إلى الطبيعة ومـا تحمله من شجن وذكريـات في قصيدة البحيرة.

وبالمثـل أيضـاً تجمعهمـا لغـة الحبّ.. ورومانسيتـه، ولعـل أبـرز مثـال على ذلك وجدانيته الشعرية التي جاء فيها:

يا جارة الوادي طربت وعادني
ما يشبه الأحلام من ذكراك
ولقد مررْت على الرياض بربوة
غناء كنت حيالها ألقاك
ضحكت إلي وجوهها وعيونها
ووجدت في أنفاسها ريّاك
فذهبت في الأيام أذكر رفرفا
بين الجداول والعيون حواك
أذكرت هَرْولة الصبابة والهوى
لما خطرْتِ يقبلان خطاك
لم أدر ما طيب العناق على الهوى
حتى ترفق ساعدي فطواك

هـذه الوقفـة الوجدانيـة الآسـرة وما تحمله من تدفـق وانسياب وخفة في الإيقاع تلتقـي بشكل كبير، بل تختـزن إلى حد كبير مـا حملته كل من قصيدة البحيرة أولاً، وكذا قصيدة ملَكٌ يهوى وحتـى قصيدة جوسلان أيضاً. وهو تجانس وتحاور وتعالق شعري له مبرراته الجماليـة، دون شك. على أن هناك أمثلة شعرية كثيرة من هذا النمط نجدها في

شعر أحمد شوقي. ويمكن للدارسين الوقوف عندها(٢٥).

وربمـــا كانت حالـــة الشعـــور بالغربة في الدنيـــا نقطة مشتركة بـــين الشاعرين وكيف لا وهما قمة الإحساســ الفلسفي. وفي هذا الشأن يقول أحمد شوقي:

سماؤك يا دنيا خداع سراب
وأرضك عمران وشيك الخراب
وما أنت إلا حيفة طال حولها
قيام ضباع أو قعود ذئاب

هذا الإحساس نفسه -بيقين واضح- عند لامارتـــين موجودة بقوة بل إنـــه سلوك دائم، فقد عرف عنه حزنه الناقم المتمرد، لا الثائر المخرب ولعل قصيدتـــه موت سقراط تحمل الكثير مما اتسمت بـــه رؤية شوقي الفلسفية السالفة. ولعل الإحساس نفسه نجده لديه في قصيدة يقول فيها:

وما صنعت بآمال لنا طويت
يا قبر فيك وعفى رسمها القدم
إلا جواب يدوي من جوانحنا
ما للقبور إذا ما نوديت لُجُمُ.

وهو يلتقي مع لامارتين في ذلك من خلال قصيدتـــه (قبر أم) ضمـــن مجموعته أناشيد سياسية ودينية الصادرة عام ١٨٣٠.

ومن الأشياء المهمة التي تمثل لمسات التقاء شعري شعوري نذكر قول أحمد شوقي متمثلاً القيم المسيحية التي حملها لامارتين منذ أنْ كان في المدرســة اليسوعية.. يقول شوقي في لغة بالغة السماحة والصدق والعرفان:

عيسى سبيلك رحمة ومحبة
في العالمين وعصمة وسلام
ما كنت سفاك الدماء ولا امرأ
هان الضعاف عليه والأيتام
يا حامل الآلام عن هذا الورى
كثرت عليه باسمك الآلام
أنت الذي جعل العباد جميعهم
رحماء وباسمك تقطع الأرحام
البغي في دين الجميع دنيّة
والسلم عهد والقتال زمام
واليوم يهتف بالصليب عصائب
هم للإله وروحِه ظُلاّم
خلطوا صليبك والخناجر والمدى
كلٌ أداة للأذى وحمام

الإحساســ نفســه يحملــه لامارتين في قصيدتـــه الصليب ضمن مجموعتـــه الثانية (تأمـــلات شعرية جديـــدة) التي صدرت عام ١٨٢٣. وقد سبق أن أشرنا إلى تشبث لامارتين

بالنزعة الإنسانية السمحة خاصة من خلال موقفه مــع الشاعر الألمــاني بيكر في نزعته العدوانية ضد فرنسا.. فقد كان ردّ لامارتين عليه إنسانياً سمحاً..

هذه النزعة السمحة الإنسانية تمثل عند الدارســين دلالة قوية علــى شاعرية شوقي ومن ذلك قوله:

تكاد من صحبة الدنيا وما فيها

تسيء ظنّك بالدنيا وما فيها.

وأبلغ من ذلك قوله:

وما نيل المطالب بالتمني

ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

وما استعصى على قوم منال

إذا الأقدام كان لهم ركابا

فوق ذلك كله.. فإن بين شوقي ولامارتين نزعــة الحب والعاطفة الجياشــة والوجدان الهــادئ وسماحة الموقف ورقة القلب ووداعة المشاعر. وقد كان لكل منهما سبيل في الحياة.. رغم كل شيء.. قدم فيه لامارتين نفسه قرباناً لأمه فرنسا.. فاحتضنته، وقدم شوقي نفسه قرباناً لمصر فكان أمير شعرائها.. بل وشعراء العرب كلهم.. وكان الشعر فوق ذلك آية كبرى حملها الناس في كل مكان. ولا أدل على ذلك حضــور الشاعر أحمــد شوقي في مراجع لا حدود لها في الدراسات الغربية. مثلما يحضر بكل قوة شعــر لامارتين في مراجع مختلفة لا حصر لهــا في الدراسات العربية.. وذاك هو الشعر.. لا حدود لجغرافيته. ■■

هوامش

١- انظـر/ في الفلسفة والشعـر: مارتن هيدجر. ترجمــة: د.عثمــان أمــين. صـ١٠١. الــدار القومية للطباعة والنشر. ط١/١٩٦٣.

٢- يمكـن العودة في هـذا الشـأن إلى كل المراجع التي تتناول الشعر العربي المعاصر وعلى رأس هـذه الكتب: الشعر العربي المعاصر/ قضاياه وظواهره الفنية، د.عز الدين اسماعيل.

٣- الأدلة الثقافية كثيرة في هذا الشأن.

٤- انظـر الأدب المقــارن. د.غنيمــي هــلال. دار الثقافـة/ دار العودة/ بيروت. ط١. في الكتاب الكثـير مـن المسائـل القابلة للنقاش في هذا المحور.

٥- التناصـ أو الحـوار بـين النصوص يمكـن مراجعـة الفكرة من خلال كتاب علم النص. /جوليـا كريستيفـا. ترجمـة فريـد الزاهي. توبقــال للنشـر. «راجع الفصـل الأخير، ط١، ١٩٩١».

٦- الأدب المقارن، مرجع سابق، ص٢٧٠، ص٢٧٢.

٧- المرجع نفسه، انظر: ص٢٧٠، ص٢٧١.

8- Voir: une autre Histoire de la litterature fraufaise، Jeau j>amesson، Nilédition، T1، 1977، fraule paris. Pp. 177183-.

انظر في السياق نفسه: النقد التطبيقي والموازنات. د/ محمد الصادق عفيفي. مكتبة الوحدة العربية. الدار البيضاء. ١٩٧٢. (ص٢٨٠-٢٨٥). انظر أيضاً: أدباء الرومانتيكية الفرنسية وإشاراته في الموضوع ويلتقي فيه محمد غلاب مع محمد الصادق عفيفي.

٩- انظر النقد التطبيقي والموازنات، مرجع سابق، ص٢٨١.

١٠-انظر قصة الأدب في العالم/ في الأدب الغربي والشرقي في القرن /١٩/ تصنيف أحمد أمين وزكي نجيب محمود. ج٣. القسم الأول. الهيئة العامة لقصور الثقافة. القاهرة. انظر أيضاً المرجع السابق **une autre Histoire de la litterature fraufaire p**.١٧٨.

راجع إلى جانب ذلك: أدباء الرومانتيكية الفرنسية ص٦٥-٩٤.

١١-انظر النقد التطبيقي والموازنات. ص٣١٣ (مرجع سابق).

١٢-انظر نفسه: ص ٣١٤، ص٣١٥.

١٣-قصة الأدب في العالم. مرجع سابق. ص١٢٠.

١٤-انظر أدباء الرومانتيكية الفرنسية. مرجع سابق. ص٩٦. ص٩٧.

١٥-نفسه: ص٩٧.

١٦-نفسه: ص٩٨، ص٩٩.

١٧- عنوان هذه المجموعة باللغة الأصلية هو **Harmonies poétuque et religieule** وقد وجدتُ الدكتور محمد غلاب يترجم الكتاب هكذا: الانسجامات الشعرية والدينية. انظر: (المرجع السابق الأدباء الرومانتيكية الفرنسية: ص٩٩.

١٨-نفسه(أدباء الرومانتيكية الفرنسية: ص٩٤).

١٩-المجموعة كلها تقريباً تعرض لها الدكتور محمد غلاب بكثير من الموضوعية في كتابه أدباء الرومانتيكية الفرنسية.

٢٠-ديوان أحمد شوقي /المقدمة/ الشوقيات. المكتبة التجارية الكبرى.

٢١-الموازنة بين الشعراء. زكي مبارك. دار الكاتب العربي. القاهرة. ط٢/ص٣٨٥. انظر مجلة الفصول/ العدد الخاص بشوقي وحافظ. ج٢ /١٩٨٣/ الهيئة المصرية العامة/ القاهرة. من خلال دراسة: حافظ ابراهيم وشوقي وزعامة مصر الأدبية: شوقي ضيف. ص١٥٥-١٧٣.

٢٢-العدد المذكور سابقاً (مجلة فصول) من خلال دراسة: شعبية شوقي وحافظ: نبيلة ابراهيم. ص٢١٣-٢٢٢.

٢٣-المرجع نفسه: ص٢١٦.

٢٤-نفسه: ص٢١٦.

٢٥-تحفل الشوقيات بخاصيات أسلوبية يستطيع الدارس المتمرس اكتشافها والبحث في صلتها النصية مع لامارتين.

